

## الترسبات المتوحشة في خطاب الإهانة

أ.د. ناجي عباس مطر  
جامعة ذي قار / كلية الآداب

### الملخص

الاهانة إستراتيجية للهيمنة غايتها الجوهرية إنهاك الرمزية التي تشيدت عليها مقاومة الآخر ويرى جان جاك روسو أن الاهانة تدرج طبيعي في العلاقات البشرية والفهم الثقافي لواقع الحياة إذ لم يكد الناس يبدؤون بتقدير بعضهم بعضاً مبادلة، ولم تكد فكرة الاعتبار تتكون في نفوسهم، حتى زعم كل وجود حق له في ذلك، وصار يتعذر إنكار ذلك على أحد من غير عقاب، ومن هنا نشأ أول واجبات الأدب حتى بين الهمج، ومن هنا صار كل خطأ إهانة، وذلك لأن المهان كان يرى في الشر الذي ينشأ عن الإهانة ازدياءً لشخصه أشد إيلاماً من الشر نفسه. وهكذا إذ كان كل واحد يجازي على الازدياء الموجه إليه بنسبة ما يُقدّر فإن الانتقامات أصبحت هائلة، وصار الناس قساة سفاحين<sup>(١)</sup> ومن ثم فأنها تبدو حاجة وظيفية تتبلور بنتيجة الصدام الثقافي بين الناس.

### In the Archeology of Insult

#### Abstract:

Insult is a strategy of domination whose fundamental aim is to exhaust the symbolism upon which the resistance of the other is built. Jean-Jacques Rousseau believes that insult is a natural progression in human relations and the cultural understanding of the reality of life, as “people did not begin to appreciate each other in exchange, and the idea of consideration barely formed in their souls, until each claimed The existence of a right to him in that, and it became impossible to deny that to anyone without punishment, and from here arose the first duty of etiquette even among the barbarians, and from here every mistake became an insult, because the humiliation he saw in the evil that results from insulting contempt for his person is more painful than evil Thus, as everyone was rewarded for the contempt directed at him by an estimated amount, the revenge became enormous, and the people became cruel and thugs, and thus it appears as a functional need that crystallizes as a result of the cultural clash between people..

### الاهانة والتوطئة للاستحواذ الثقافي

تمثل الاهانة شكلاً من أشكال الاستحواذ الثقافي على الآخر بقصد الهيمنة وفرض إرادة محددة عليه إنها في الواقع نوعاً من ممارسة الخصاء الذهني على الآخر، لاسيما أن تكرار ذلك يؤدي مهمة وظيفية في ترسيخ المبدأ المتخيل الذي يراد تمريره، وإن كانت الصورة النمطية لها اجتماعياً اتخذت صورة التبخيس أو الاحتقار وإصاق اتهامات معلبة به بغاية تسويق صورة مهشمة ثقافياً له، و" الاحتقار لم يعد بعد محصوراً في الإهانة، في الإخضاع، في الإقصاء، بل هو يتمثل في ممارسة جميع هذه الأنواع من العنف بفاعلية أكبر تحت غطاء مناورات أصبحت معتادة للغاية إلى حد أن طبيعتها كما أن مفعولهما يتّمان من دون أن يفطن أحد بهما"<sup>(٢)</sup>، فهي حرب في المعنى بواسطة اشتقاقات اللغة في الغالب وإن كانت هناك صوراً للإهانة غير ذلك ، على أننا يجب أن لا نغفل أن لكل ثقافة وأمة شروط معينة للإهانة قد لا تكون كذلك لدى أمة أخرى وثقافة أخرى ،ذلك أن الاهانة يحدد فاعليتها التاريخ الثقافي لمجموعة معينة والشروط الوظيفية والرمزية التي تكسي المفاهيم دلالات إضافية، فمثلاً ( لكم ) صدر الآخر وضربه بقوة لدى الشعوب السلافية تمثل نوعاً من التبجيل والاحترام كناية عن الأشتياق العميق والترحيب المبالغ فيه فيما نفس الفعل لدى الشعوب العربية يمثل انتهاكاً واعتداءً يتطلب الرد والقطيعة.

العنف الرمزي الذي تمارسه الاهانة من مهماته التدجين والإقناع التطوعي الذي يفرضه القبول التدريجي بفرضيات الاهانة فمثلاً قرأت مرة مسرحية للكاتب الأرجنتيني ازوالد دارغون (حكاية الرجل الذي صار كلباً) وتحدثت عن رجل جائع ،عاطل عن العمل بلا مؤهلات عملية تساعده في الحصول على العمل ، أشفق عليه أحدهم عبر إيجاد عمل له بأن يكون كلب حراسة له بعد أن مات كلبه ،وهي اهانة بكل حال لأنها مسخ للصفات البشرية لدى الآخر، لكن الرجل-الكلب- تماهى مع وظيفته فصار ينيح ويمشي على أربع في كثير من الأحيان لأن حاجته الوظيفية جعلته يقنتع ويرضى بالمسخ الذي يريده رب العمل له، " ويستمر اللا مألوف على الواقع الذي عاشه الرجل الكلب وسط التيه وفقدان الهوية ، والبحث عن ماهيته ، وسط سوء تعامل أصحاب العمل معه فيما لو كان إنساناً ؟ وهكذا في لحظة الضعف واليأس هذه كيف ستحل مشاكله التي دفعت به إلى مسخ الإنسان ملوثاً كل قيم الإنسانية."<sup>(٣)</sup> ، وفي الواقع أن ما تفعله التقنيات الحديثة التي تغلغت في حياة الإنسان أنها جعلت المسخ الذي تمارسه يبدو محبباً ومقبولاً ، فالإنسان في ظل استغراقه بعالم التقنيات التواصلية أصبح أسير السجون الثقافية التي تطرحها تلك التقنيات كبديل للواقع وبذا أصبح النسق التقني الأعمى بتعبير جاك إيلول هو المهيمن على فعل الإرادة للإنسان" إنها نسق ،لأن كل عامل تقني فيها (كآلة

مثلاً) هو أولاً مرتبط، وخاص بـ، وتابع لمجموع العوامل التقنية الأخرى، قبل أن يكون في علاقة بعناصر غير تقنية<sup>(٤)</sup>، عملية التحول الرمزية من كائن بإرادة واعية مستقلة إلى مالك وهمي للحرية، فيما هو في الواقع مجرد منها، ومستغل من خلالها تجعل المرء سجين أو هام ثقافية، يتخيل من خلالها فعل الإهانة بوصفه ضرورة لا بد منها، فالقاعدة أنك كلما امتلكت شيئاً، فأنت سيده ومديره ومديره، أما إن امتلكته وظل يدريك ويدبرك فستظل حينها مملوكاً له، وإن بدا أنك مالك له<sup>(٥)</sup>، من جانب آخر أتاحت تلك التقنيات للمهمشين أن يتوهموا مركزية اصطناعية لوجودهم الرث، من خلال إعطائهم مساحة للتعبير تساويهم مع سواهم ممن يمتلك كل الأدوات الثقافية للتأثير، وهي الفرصة التي جعلت امبرتو ايكو يرى فيها نوعاً من الإهانة الثقافية للنخبة التي توارت بفعل ذلك حين قال في تصريح لمجلة إيل ميساجيرو» الإيطالية " إن وسائل التواصل أتاحت لجحافل الأغبياء أن يتحدثوا وكأنهم علماء، مواقع التواصل الاجتماعي منحت حق التعبير لجحافل من الأغبياء ما كانوا يتحدثون سابقاً إلا في الحانات بعد احتساء الكحول من دون إلحاق أي ضرر بالمجتمع. مضيئاً: كان هؤلاء يُرغمون على الصمت فوراً، في حين بات لهم اليوم الحق عينه في التعبير كشخص حاز جائزة نوبل.. إنه غزو الأغبياء"<sup>(٦)</sup>، فالمساواة وأن بدت شعاراً لذيذاً على مر التاريخ لكن التقنية التي جعلت فيلق الأغبياء يتسبّد على حساب المثقف الحقيقي تبدو فعل إهانة ثقافي صادم ومشارك؛ فهو فعل إهانة موجه للضمير الثقافي للمجتمع المتمثل بالنخبة المثقفة التي صارت ترى نفسها متساوية في التعبير والتأثير مع جحفل الأغبياء، بفعل امتلاك نفس الفرص في التعبير والانتشار من جهة، وفعل إهانة مخملي موجه للأغبياء أنفسهم، الذين تورمت ذواتهم بشكل فجح حتى صاروا يتخيلون أنفسهم التأثير والانتشار، فلا غرو أن نجد غيبّي يتخفي خلف اسم وهمي في وسائل التواصل الاجتماعي لشخص ليس له أدنى مستويات التفكير، تتورم ذاته فيجد نفسه صار رمزاً مرموقاً ومؤثراً بفعل انسياق جموع الأغبياء خلف كلماته التافهة، بمقابل هذا: نجد مفكراً عظيماً يتخذ من ذات النافذة وسيلة تواصل مع الجموع تصدأ كلماته بغير أن تؤثر بأحد، والغريب في فعل الإهانة أن وسائل الاتصال الحديثة تجعل المرء مكشوفاً عارياً تمتلك كل أسرارهِ، وعلى الرغم من ذلك الانتهاك المهين لكنه يتلذذ بذلك ويستمر بتبعيته لها على وفق توهم امتلاكه لاستقلالية متخيلة .

من جانب آخر تغدو الإهانة في السجن أو التحقيق الجنائي غاية جوهرية معلنه، لأنها بوابة انسحاق المرء وشعوره بالنقاهة الكافيين لكي يكره نفسه ثم يبدأ بالانتقام منها عبر الاعتراف بما فعله وما لم يفعله، وتبدأ الإهانة من تسمية جلسة التعذيب والإهانة بالحفلة وهي تسمية تكاد تكون ثابتة في كل أقبية المخابرات، فالحفلة اصطلاح يشير إلى اتجاهين اتجاه النشوة واستنزاف الحدث لأجل المتعة

واتجاه آخر يمثل دور الأداة والتشويؤ الذي يفترض أن يقوم به المعتقل في سبيل إسعاد السجناء، ف"التعذيب عملية كلية يطلق الجلادون عليها اسم حفلة، وتتضمن أبعاداً جسدية وأخرى نفسية تتناظر فيما بينها كي تؤدي إلى الهدف المطلوب، وهو إما تدمير كيان الضحية وإيصالها إلى وضعية (الحية-الميتة)، أو كسر إرادتها ومناعتها وكثافتها الذاتية بحيث تصبح مجرد شيء يمتلكه الجلاد، ويمتلك حرية التصرف فيه" <sup>(٧)</sup>، ذلك الشعور بالعدمية والاحشاء كفيل بان تتساوى قيمة الحياة والموت لدى الإنسان ومن ثم لا يجد غضاضة في الاعتراف بأشياء لم يقدّم بها تخلصاً من وطأة الإهانة التي تستنزف مناعته، الغريب في الأمر أن السجناء أنفسهم في واقع الأمر مهان مخصي أمام مستبد أعلى منه يشعره هو الآخر بالتفاهة، وأنه بممارسة فعل الإهانة أمام المعتقل فإنه يعيد إنتاج الإهانة إلى سواه، ويأثر لنفسه المستباحة قبل أن يكون الهدف من ممارسة الضغوط، وحراسة النظام الذي يمثله، فالاستبداد يحتم الدونية حتى للأركان الصغيرة التي تمثله، وطغيان الشعور بوطأة الإهانة الرمزية التي تحيط، تجعل من الدوني يحاول إعادة إنتاج الإهانة لأيّ بديل مُتوهم، كي يشعر بالتساوي والتكافؤ فليس وحده من كان ذليلاً "ومن الجائز أن المقهورين يتعرضون لزملائهم المواطنين لأنهم يعرفون أنهم يستبطنون في دخيلات أنفسهم شخصيات قاهريهم، فكأنهم بذلك يقومون بطريقة غير مباشرة بمهاجمة القاهرين" <sup>(٨)</sup>، فالجلاد مهما بالغ في إظهار استبداده إنما هو في واقع الأمر عبد خانع مخصي لمستبد أكبر لا يرى فيه إلا أداة وضيعة لإدامة استبداده، وهو يستبطن ذلك الشعور جيداً لذلك يعتمد إلى تصدير الإهانة التي تحيط به إلى بديل أضعف، و" يرى جورج آلبوت أن الكراهية الأشد قسوة هي تلك التي تمد جذورها في الخوف ذاته وتتكيف عبر الصمت، وتحول شعور العنف إلى نوع من شعور الرغبة في الانتقام على نحو يشبه طقوس الثأر الخفية" <sup>(٩)</sup>.

على وفق ذلك، يتفنن المحققون في دهاليز المخابرات وأقبيبة الأمن في اختراع الطرق المبتكرة من الإهانة والوصول بالمرء إلى مرحلة الشعور بالتفاهة، لكي يضمن المحقق انتزاع الاعترافات منه، فتتويع الإهانات يشعر المرء بتفاهة كل شيء، الأمر الذي يجعل الأسباب التي تربطه بالواقع متلاشية بعد أن تحول كل شيء موجود أو متخيل أو مخفي بأعماق الذاكرة إلى نظام من التفاهة لا يستحق التضحية لأجله أو الاستمرار بالنشيب به فهو لا يختلف عن الوهم بشيء. فعملية الإيهام والخط بين الواقعي وغير الواقعي أو الاستبدال بينهما تتيح للإنسان أن يتنازل بكل أريحية عن ثوابته بعد أن تهاوت أمامه الأسس التي كان تستند وجوده وفي ذلك يقول سعيد بنكراد في مقدمة كتاب الإنسان العاري "لا يتعلّق الأمر بتمثيل مزيف للواقع، كما كانت تفعل ذلك الأيديولوجيا قديماً، بل هو الإيهام الدائم "بأنّ الواقعي ليس هو الواقعي" كما يقول جان بودريار، فعالم الحياة الفعلية لا يُدرك إلا من

خلال مُضاف افتراضي يُعمق غربة الفرد عن نفسه وعن واقعه، ويستدرجه إلى وحدة "ينتشي" بها وسط الجموع. إنَّ الواقعي ناقص، وتلك طبيعته، كما هو الإنسان ناقص أيضًا، وتلك عظمتة وذلك مصدر قوته. ولكنَّ النقصان في الحالتين معًا، لا يُمكن أن يعوّض بالافتراضي<sup>(١٠)</sup>، فتغيير نمطية الأشياء يفتت العلاقة معها، ويعتمد إلى إنتاج خلط جديد لماهية اصطناعية على مقياس المؤثرين؛ ماهية تقارب ما تؤديه التكنولوجيا في تنميط الأداء الاجتماعي للإنسان على وفق مقاسات محددة، تقسح المجال أمام تأسيس التكنولوجيا الرقمية لرؤية جديدة للإنسان عن نفسه؛ رؤية تجعل الإنسان يشعر بجذوى شبيئته الجديدة التي لا تنتمي بشيء لذلك التاريخ الطويل من الوعي، ومن ثم يبدو نظام التفاهة الذي يتم تمجيده وبيان محاسنه في واقع الأمر تدجين للاهانة وتزويق لها.

ويمارس الإعلام الموجه في العادة فعل الاهانة الجمعية من خلال الحرمان من المعنى الذي يمارسه الخطاب المكرر المقصود، إذ أن عملية الترسخ المعلب لخطاب ما في الواقع تمثل شكلا من أشكال الاستيلاء الثقافي والانتهاك تجاه الآخر لكونه يسلب الآخر قناعاته ويمهد لتوليد قناعات جديدة لديه قد تكون مستوردة، ولا تواءم الطبيعة الثقافية والاجتماعية للمتلقي ومن ثم تجعله هجينًا فاقدًا للإرادة، لان القناعات مسؤولة مسؤولة مباشرة عن تكوين الإرادة لدى الأفراد، وهو ما يجعلنا أمام فرضية الاهانة الجمعية الذي يمارسها الإعلام، فالإعلام لا يمارس لعبة الحرمان من الكلام وان بدا ذلك مقننا بدوافع التعدد الكاذب التي يشيعها لكنه في الواقع يمارس لعبة تصدير المعنى المعلب، الذي يمحو المعاني الراسخة. بذلك يبدو الخطاب الموجه عنفا رمزيا يراد منه تكريس الاستحواذ الثقافي الذي يكون احد أدواته مسح الذاكرة الجمعية وإحلال ذاكرة بديلة اصطناعية تكون مسؤولة عن جعل اللا يقين يقينا معادا، فالنظام الإعلامي قادر على احتلال الفضاء الذهني للبشر حتى يجعل أدمغتهم جاهزة لاستقبال رسائل سياسية أو دعائية. الدماغ الجاهز مصطلح ابتدعه مدير القناة الأولى الفرنسية، الأكثر شعبية في بداية ٢٠٠٠، من السهل أن ندرك في هذه الجاهزية مفعول الخضاء الذهني، الذي يعطل بالفعل القدرات النقدية، وبالتالي التأمل لصالح الرسائل التلفزيونية، فبقدر ما يستسلم المشاهد لهذه الرسائل لا يعود شيء ينبّه وعيه بسبب أن تدفق الصور التي تقتحم عينيه تقتحم أيضا ذهنيته وتحتلها بتمامها، لا شيء يقلل عندها من سرعة هذا الاحتلال، الذي لا يتوقف عن النمو<sup>(١١)</sup>، فهي استباحة ثقافية وان بدت مغلفة بتزويقات ملونة تخفي أهدافها الكامنة، وكل استباحة وان كانت ناعمة متخفية تحت أستار التمويه المخملي هي في الواقع شكلا من أشكال الاهانة الموجهة.

### الاهانة الدينية

يعد الدين احد أنظمة الثقافة التي تؤسس للضمير الجمعي لأية مجموعة بشرية، وتختلف طبيعة التلقي له باختلاف الظروف المؤسسة والخميرة الثقافية التي تعيد إنتاجه على وفق شروط مبتكرة قد تبتعد به عن مصادر التأسيس ، فالدين في جوهره يتشكل من معانٍ رمزية ترتبط بأفكارٍ عن النظام العام (يعبر عنها أما بالطقوس أو بالمذهب أو بهما معا)<sup>(١٢)</sup>، فالإسلام الإيراني مثلا مشبع بالرؤى والتصورات الروحية العميقة المستمدة من الميراث الروحي السحيق للشعب الفارسي أغدقها الإيرانيون على الإسلام حين اعتنقوه، فأنعشوا الفكرة بمجموعة هائلة من الخمائر الثقافية التي أكسبت الإسلام دلالات مضافة لم تكن فيه، وهو ما يعني أن الدين يعيش في صيرورة وظيفية مستمرة وان بدت تعاليمه ووصاياه ثابتة متخشبة، لان التلقي الثقافي يجعلها سائلة على الدوام، بذلك يبدو الدين من ناحية عميقة، مسؤول عن تشييد الروح العامة الكامنة المنتخبة للخيارات المصيرية لأية مجموعة<sup>(١٣)</sup> فالروح العامة للشعب تمتاز ليس فقط بنوع الأفعال النبيلة التي يحتفي بها ،بل أيضاً بنوع الخسة التي يشجبها، فردائل الشعب كما فضائله موصوفة بأسلوبه الخاص<sup>(١٣)</sup>.

وبعودة بسيطة إلى هوامش اللغة نكتشف أن البدوي الذي احتكر الدين وأمه لصالح عصبية بغیضة ، ابتكر مجموعة من الاهدانات للضد النوعي الثقافي الذي ينافسه في الوجود فبدت كلمات كافر ودجال شتائم دينية موجهة للمنبوذ دينيا لكن ذاكرتها اللغوية ستحيلنا إلى أسباب ثقافية، فالكافر هو الفلاح عموما الذي يخفي البذار لتهينتها للزراعة والدجال ،كذلك هو المزارع أيضاً لان الكلمة الأرامية دجل ودغل تعني النخل والزرع عموما ولان التضاد بين البدوي والفلاح يبدو بنيويا فقد استعار لتبخيسه ونبذه بعض صفات الفلاح وأسماءه لتكون قرينة للنبذ والاحتقار بنتيجة التقاطع الثقافي والوظيفي بين البدوي والفلاح ، وهو الفرز الذي انتبه القرآن الكريم فأراد إظهاره فقال " كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما "سورة الحديد ٢٠، فالكفار بهذه الآية هم المزارعون عموما ، وكان القرآن أراد تكثير المتلقي بذلك الفرز البنيوي وتفكيك تلك الاهدانة الثقافية. فالسياق الديني المترام حرم المفردة من المعنى المؤسس لها ، وعبأها بمعنى اصطناعي بديل مغاير كلياً للأصل المؤسس حتى صارت كلمة كافر مثلاً سبباً كافياً للشعور بالإذلال والاهدانة ، بينما هي في الواقع لا تختلف بأي شيء عن كلمة فلاح ومزارع، اللتين لا يشعر الإنسان بأية اهانة حين يسمعهما من الآخر، فالفرز كان وظيفياً في بداية التأسيس لكنه اتخذ منحى ثقافي بمرحلة تالية ليكرس شكلا من أشكال الاستيلاء الثقافي والهيمنة.

من جانب ثان نجد أن الهيمنة والاستبداد الديني يفترضان انتقاصا دوريا من الآخر المنافس أو المناوئ عموماً وكأن ذلك الانتقاص والتبخيس سيوفر تحصينا ثقافيا للتابعين وامتلاءً رمزياً متوهماً، فالكائن المتدين بغض النظر عن نوعية دينه يؤمن باحتكاره لوثن ميتافيزيقي لا يراه سواه وأن ذلك الاحتكار يحتم اصطفاءً متميزاً، إذ "يظن المتعصبون من خلال توهمهم باكتشاف المطلق وما فوق البشري، أنهم أمسكوا بالحقبة التي تمنحهم كل العلم، كل القوة والسلطان والعصمة وكل أشكال التفوق على البشر" (١٤)، فاليهودي حين يسمي الآخرين ممن لا يعتقدون دينه (غويم) وتعني الاغيار إنما يريد فرض تسويغ ثقافي يبيح تفوقه وفرادته، وفي ذات الوقت يقدم تسويغاً دينياً لنبذ الآخر والنظر له من زاوية اصطفاء تجعل منه كائناً متدنياً (١٥)

ولفظ (غويم) جمع مُفْرَدَه (غوي)، و تلفظ جوي أيضا ، ولعل أصل الاصطلاح جاء من مدينة جوي التابعة للكنعانيين المناوئين لليهود ثقافياً وتاريخياً ، وبقيائها مدينة جوبا اللبنانية قرب مدينة صور اللبنانية ، كناية عن القطيعة والافتراق مع الكنعانيين، فجويم تعني في الأصل الجويين إذا ما تذكرنا أن الياء والميم أداة الجمع في العبرية ، أدغمت الواو الثانية بحكم التواصل فأصبحت الجويم أو الغويم دلالة على كل كائن غير يهودي يجب نبذه، يصاحب ذلك تقديم سيرة مشوهة لمدينة جوي الكنعانية في الضمير الجمعي لليهود ، تضمن استمرار المسخ الرمزي لأبنائها بما يجعل اليهودي مستغرقاً في كراهية الاغيار ونبذهم ، وقد استعمل أصلاً في اللغات السامية - ومنها العبرية- للدلالة على الحيوانات المتجمعة في قطع، أو الطيور والحشرات والهوام التي تتحرك في أسراب. ثم انتقل للدلالة على الكثير المختلط من الناس، ثم إلى سفلتهم وأشرارهم. ومن هنا خصصتها العنصرية اليهودية منذ القدم للدلالة على جميع الناس من غير اليهود، ثم توسع أحبار اليهود في مدلول الغويم، فأضافوا إلى الكلمة معنى القذارة المادية والروحية والكفر، فأصبحت كلمة (غوي) عندهم سُبَّة ، والدعاء الإلزامي الذي يرده أي يهودي صباح كل يوم: الهي أشكرك لأنك لم تخلفني غويم ، وفي تعاليم التلمود أن الله خلق الأغيار (الغويم) على هيئة الإنسان ليكونوا لائقين لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم، لأنه لا يناسب الأسياد أن يخدمهم على الدوام حيوان باقٍ على صورته الحيوانية وغوي تلفظ جوي أيضاً ويقابلها بالمعنى العربي ما يشير لتلك الذاكرة اليهودية فجوي في العربية " جَوِي الشيء جَوِيَّ واجْتَوَاه: كرهه؛ قال: فقد جعلتُ أكبادنا تَجْتَوِيكُم، كما تَجْتَوِي سوقُ العِضَاه الكرازِما وجَوِي الأَرْض جَوِيَّ واجْتَوَاها: لم توافقه. وأَرْض جَوِيَّة وجَوِيَّة غير موافقة. وتقول: جويت نفسي إذا لم يُوافقَكَ البلدُ. واجْتَوَيْتُ البلدَ إذا كرهتَ المُقامَ فيه وإن كنت في نعمة. وفي حديث العُرَبِيِّينَ: فاجْتَوُوا المدينةَ أي أصابهم الجَوِي، وهو المرض وداء الجَوْف إذا تَطَاوَل، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها

وَأَسْتَوَحُّمُوهَا. وَاجْتَوَيْتُ الْبِلَادَ إِذَا كَرِهْتَ الْمَقَامَ فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنْ وَقَدْ عُرِّيَتْ قَدَمَا الْمَدِينَةِ فَاجْتَوَوْهَا. أَبُو زَيْدٍ: اجْتَوَيْتُ الْبِلَادَ إِذَا كَرِهْتَهَا وَإِنْ كَانَتْ مُوَافِقَةً لَكَ فِي بَدْنِكَ؛ وَقَالَ فِي نَوَادِرِهِ: الْاجْتَوَاءُ النَّزَاعُ إِلَى الْوَطَنِ وَكَرَاهَةُ الْمَكَانِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ. قَالَ: وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَازِعًا إِلَى وَطْنِكَ فَإِنَّكَ مُجْتَوٍ أَيْضًا. قَالَ: وَيَكُونُ الْاجْتَوَاءُ أَيْضًا أَنْ لَا تَسْتَمِرَّ بِالْأَرْضِ وَلَا الشَّرَابِ، غَيْرَ أَنْكَ إِذَا أَحْبَبْتَ الْمَقَامَ بِهَا وَلَمْ يُوَافِقْكَ طَعَامُهَا وَلَا شَرَابُهَا فَأَنْتَ مُسْتَوِيلٌ وَلَسْتَ بِمُجْتَوٍ. وَجَوِيَ الطَّعَامُ جَوًى وَاجْتَوَاهُ وَاسْتَجَوَاهُ: كَرِهَهُ وَلَمْ يُوَافِقْهُ، وَقَدْ جَوَيْتُ نَفْسِي مِنْهُ وَعَنَهُ، وَمِنْ هَذَا الْجَوَى، وَهُوَ دَاءُ الْقَلْبِ. فَأَمَّا الْجَوَاءُ فَهِيَ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ<sup>(١٦)</sup>، وَلَا يَخْفَى عَلَى الْمُتَتَبِعِ لِأَصْلِ اللَّفْظَةِ ملاحظة التورث الدلالي للفظه العربية وما ترسب من جذور للمعنى اليهودي داخل الفضاء الرمزي والدلالي لها، وكيفية حشو تلك الذاكرة الهجينة داخل السياق اللغوي العربي بحكم التعايش والاحتكاك، حتى صار المعنى العربي لها معبئا بهوامش الرؤية العبرانية لذلك الأصل. يضاف لتلك الإهانة الموجهة للجويميم فأن اليهودي مستغرق بمطاردة تاريخية جعلت ما أطلق عليه الدياسبورا (الشتات) وطنه المتنقل، حتى إنه لم ينتم للأرض التي يعيش فيها في دياسبوراته المتعددة، وهو الانسلاخ الذي قاده بالضرورة إلى النظر لكل المرتبطين بالأرض نظرة ازدراء واحتقار، فقد أظهرت اليهودية الكلاسيكية كراهية واحتقارا للزراعة كمهنة وللفلاحين كطبقة، أكثر من كراهيتها للأغيار - كراهية لا أعرف لها مثيلاً في مجتمعات أخرى - ويتجلى هذا الأمر لأي إنسان على دراية بالأدبين الديدشي أو العبري في القرنين التاسع عشر والعشرين<sup>(١٧)</sup>، وهي إهانة وظيفية بطبيعة الحال لأن الزراعة تتطلب استقراراً يفقده اليهودي المطارد بكل جغرافيا يعيش فيها، مما يجعله يبخل ثقافياً ما لا يستطيع أداءه، فضلاً عن هوس اليهودي بالقضايا المصرفية وبيع الذهب بكل زمان ومكان، وهي العقدة التي ألهمته النظر للآخرين كأعداء متوقعين فلا غرو أن نجد موسى بن ميمون يفتي، بـ "ألا نتسبب بقتل غير اليهود الذين لسنا في حالة حرب معهم. ولكن يحظر إنقاذ حياتهم إذا كانوا على مشارف الموت. إذا شوهد أحدهم يسقط في البحر، مثلاً، فلا يجب إنقاذه، لأن الشريعة تقول لا تهمل دم أخيك، وغير اليهودي ليس أخاً، كما يحظر على الطبيب اليهودي، خصوصاً، معالجة غير اليهودي، وابن ميمون نفسه، وهو طبيب بارز، صريح بهذا الصدد، ففي موضع آخر.. يختتم بالقول إن علاج غير اليهودي حرام ولو كان مقابل أجر"<sup>(١٨)</sup>، ويتطرق التلمود ليحرم الزمان على اليهود إذا اقترن بالجويميم فيعزل اليهود زمانياً عن أقرانهم الجويميم، إذا تصادف مع أعيادهم وهو نوع من العزل الثقافي في الواقع، فيقرر قبل أعياد الجويميم (غير اليهود) بثلاثة أيام يحرم التعامل معهم، (سواء) لإعارتهم (أشياء) أم للاستعارة منهم، أو لإقراضهم أو للاقتراض منهم، أو لتسديد (الدين

لهم) أو للتحصيل منهم<sup>(١٩)</sup>، وتعاليم التلمود واضحة بعدم جواز التعامل معهم وان لا تتم دعوتهم لوليمة ولا يجوز انفراد اليهودي بأي من الجويم لأنه يشك في سفكهم للدماء، ولا يجوز لليهودية أن تساعد امرأة من الجويم في الإنجاب لأنها ستنجب ابنا للأوثان<sup>٢٠</sup> ولا يسمح لليهودية بان ترضع طفلا فقد أمه من الجويم ولكن يجوز للأجنبية أن ترضع يهوديا فقد أمه، كل تلك التعاليم التلمودية تكرر عزل الآخر (الجويم) وسجنه في سجون النذب، بل أن التلمود يتطرف فلا يجيز للطبيب اليهودي أن يتعامل مع الجويم في حال التطب لديه إلا بوصفه احد البهائم!<sup>(٢١)</sup>.

في القرآن نجد تمايزا في الخطاب بين بني إسرائيل واليهود فالقرآن لم يذم اليهود حين يأتي السياق بتلك اللفظة لكن الخطاب يتبدل ويتخذ منحى يزخر بالاحتقار والاهانة والوعد والوعيد إذا كان موجها اتجاه بني إسرائيل وهو فرز يحيلنا حتما إلى التفريق بين الاصطلاحين وضرورة البحث عن أصول فارقة بين المفهومين، وفي اعتقادي أن الإشارة القرآنية إلى اصطلاح اليهود والذين هادوا يوحي إلى جوهر الدين الذي أراده الله أو الرؤية القرآنية للدين فيما يمثل بني إسرائيل التحول الدنيوي لذلك المنهج، كأن القرآن يحاول التفريق بين المنهج الديني والمنهج الدنيوي البديل، لذلك نجد أن القرآن بمجال الحديث عن اليهود كان على الدوام تجبيليا ومفخما لهم بينما يكون الخطاب مهينا وتبخيسيا حين يكون الحديث عن بني إسرائيل وهي إشارة تحيل حتما إلى ضرورة التفريق بين الاصطلاحين ثقافيا ودينيا .

في جانب مقابل نجد أن التلمود وحاخامات اليهود روجوا لكناية تحقيرية ليسوع المسيح هو اصطلاح ابن بانثيرا للدلالة إلى فرضية أسطورية تتعلق بوجود علاقة بين مريم وجندي روماني وهي الحكاية التي تضم انساقاً ثقافية مضمرة فمن جانب الجندي الروماني يرمز للاستبداد البغيض المتعلق بهدم أورشليم على يد الرومان ومن جانب آخر للاصطلاح حواشٍ لغوية رمزية تتعلق بان لفظ بانثيرا في اليونانية يعني النمر، والنمر التصق أسطوريا بباخوس اله الخمر، فقد كان المتعبدون لباخوس ينامون على جلود النمر، وهنا يقفز أمامنا أسم بافوس بن يهوذا وهو الاسم الذي يورده الحاخام عقبه لزوج مريم المجدلية التي يسميها سطادا التي كان لها عشيق اسمه بنديرا " وهو ما جعل حاخامات اليهودية يعرفونها بأنها هي أم يسوع المسيح انطلاقا من قناعاتهم بان الأخير لم يكن المنتظر، بناء على ذلك تمت مماثلة مريم بزواج بافوس<sup>(٢٢)</sup>، وهو خطأ احتاجه الذين كانوا بحاجة لتحقير الثقافة المناوئة لذلك يمكن تصور التعمد القسري في الخلط لدى حاخامات اليهود بين مريم الحقيقية ومريم المجدلية سواء من خلال الأتكاء على الأسم والذاكرة الموحدة أو من خلال الأتكاء على الهوامش الملحقة من الذاكرة الاصطناعية بغاية تعميق الاهانة اتجاه ذلك المناوئ، وهنا علينا التنبيه للاقتران الصوتي بين بافوس صديق بنثيرا الزانية وباخوس اله الخمر ورفيق بانديرا النمرة للدلالة على طبيعة التحور الثقافي

للمرور أبا ن صرورة ؤولها وإعاده تصنعها ، والنمر أيضا هو الحيوان الكاسر الذي يظهر على القطع النقدية ، وثمة على إحدى تلك القطع النقدية رسما لباخوس وهو يقدم نبذا للنمر" لذا لن يكون من الصعب فهم سبب إطلاق التلمود اصطلاح ابن بانثيرا على يسوع المسيح حيث يتم الربط بين النمر والفسوق المرتبط بهذا التعبد لباخوس . وعلى هذا يكون المقصود بالنعته :بن بانثيرا، ابن النمر/النمرة ،أقصى درجات التحقير وهنا نتذكر النعت العربي التحقيري (ابن اللبوة) ، هنا من البدهي توقع السؤال التالي :كيف يمكن لإحاق اسم يسوع المسيح بدائرة ثقافية بعيدة عن أصوله؟ نعود مرة أخرى إلى اللغة اليونانية حيث نقرأ أن المفردة اليونانية برثينوس تعني عذراء ، هكذا تم تحويل (بن برثينا) إلى بن بنثيرا ، (مع أداة التعريف الأرامية اللاحقة) ليصبح ابن العذراء هو ابن النمر وهو نعت تحقيري ما زال يستعمل إلى أيامنا هذه " (٢٣) ، هذا التحول في الاصطلاح من الأصل الذكوري الموجه للجندي الروماني المدجج برمزية تاريخية بغیضة لدى اليهود ، إلى المرأة اليهودية التي تمردت على قوانين قومها الدينية وأنجبت متمردا يسعى لنسف الرأسمال الرمزي للديانة اليهودية جعلت الاصطلاح ينتقل من الذكورة إلى الأنوثة ليستقر أخيرا ملتصقا بمريم ومحررا من الأصول المؤسسة التي أوجدهته مقترنا بالجندي الروماني لضرورات الإهانة الثقافية فابن بانثيرا هو ابن النمرة فقط ولو كان ابن النمر لا يرتبط بالقوة والتسامي في اعتقادي تبعا لظروف الثقافة المشيدة للتصورات ، لذلك وفي إطار ذات السياق ، فأنا أظن أن الاصطلاح التحقيري فيما يتعلق بابن اللبوة يحيلنا إلى جندرية مضمرة فابن اللبوة صار تحقيريا لأنه ينسبه للأنثى بمجتمع ذكوري تهيمن عليه الثقافة الفحولية ولو كان الاصطلاح ابن الأسد لكان دلالة للافتخار ، فالمرأة بكل الثقافات تظل المكان الرخو المنعش لكل أنواع الإهانات، لذلك يحرص المتنافسون على أن تكون سهام التحقير مختلطة دائما بشتم الرمزية الأنثوية للأخر، فلا غرو أن نجد أن الشتيمة الموجهة للأنثى الأخر ، لا تغدو مهينة، لو استبدلنا الأنثى بالذكر وأبقينا ذات الخطاب والصفات، فابن النمر ليس هو ابن النمرة مع أن صفات الحيوان واحدة في الذكر والأنثى ، لان الهيمنة تؤسس لقيم رمزية تكتسب نجاعتها عبر تراكم التكرار ، وهو السياق الذي يجعلنا نتقهم أن قولهم ( عضو أبيك) مجرد خطاب مبتذل وسوقي فقط ، لكن القول(عضو أمك) سيكون مهينا فضلا عن كونه مبتذلا ، مع أن الخطاب في الحالتين هو ذكر لأحد الأعضاء التناسلية للجسد؛ مرة لدى الأنثى ومرة لدى الرجل ، لكن العضو حين كان أنثويا صار سببا للإهانة فيما ظل ذات العضو الوظيفي في سياق الذكر مجرد أداء وصفي مبتذل ، بل لعلي لن أغالي إذا قلت أن الشخص إن قيل له مؤخرة أبيك لن يمتعض كثيرا كما لو قيل له مؤخرة أمك وكأن الإهانة أن ارتبطت بالأم تكتسب دلالة تحقير مضافة، وبسبب ذلك يتخذ المحققون عادة من التحقير

اللفظي وسيلة من وسائل استنزاف المقاومة لدى المعتقل، لما للشرف من قيمة رمزية مهمة، فإطلاق النعوت اللا أخلاقية على السجين وذويه، وخصوصا الزوجة والأم، لما لهما من حرمة أخلاقية، خصوصا في ثقافتنا، فمن خلال تحقير الأم والزوجة يحاول الجلاد النيل من رجولة السجين وكرامته، مبينا انه أخط شأنا من أن يثور ذاتا عن شرفه، وهو ما يوّد جرحا نرجسيا لدى السجين<sup>(٢٤)</sup>، يعجّل باستسلامه إذا لم يجد الأدوات الكفيلة برد الثأر لذلك الجرح النرجسي، واللافت أن الثقافة التي أسست ليكون العار رديفا للأنثى بحكم عوامل الهيمنة الثقافية والتقاطع الوظيفي جعلت الأنثى لاشعوريا تجعل من استحضار أعضاء الأنثى التي تماثلها بابلوجيا وسيلتها الدفاعية في احتقارها لأخرى تناوئها الخلاف، فحين تريد المرأة اهانة أنثى ثانية لن تقول لها (عضو أبيك) بل أنها تجعل من ذكر (العضو التناسلي لأختها أو أمها) وسيلتها الانتقامية في الثأر الرمزي، لكونها خضعت للمتخيل الاجتماعي الذي يرى في المرأة مركز العار والعورة، بحكم سيادة الثقافة الفحولية وهيمنتها على كل وسائل التعبير، وهي السيادة الوظيفية التي أسست في مراحل مبكرة قوانين أخلاقية كرسّت عزلة المرأة وثانويتها من خلال النظر لها عورة كلها ووجوب تغطيتها كلها، في حين لم يكن جسد الرجل عورة سوى ما كان بين الساقين. في ذات السياق ولأن العار التصق بالأنثى في المتخيل الثقافي والديني، إذا أراد امرؤ مسلم اهانة آخر إهانة مركبة، يقول له ابن اليهودية وقد أشيع هذا الاصطلاح في وصف الإعلام العربي للقدافي مثلا أبا الثمانينات والتسعينات لترسيخ صورة نمطية مشوهة عنه في الرأي العام العربي، وفي اعتقادي أن شتيمة ابن اليهودية وليس ابن اليهودي، تعود للقناعة الدينية التي يكرسها التلمود. والتي ترى أن اليهودي الحقيقي هو الذي يولد من أم يهودية وإن كان أبوه غير يهودي فيما ينظر لليهودي من امرأة غير يهودية وأب يهودي بان يهوديته منقوصة، تلك الخميرة هي التي رسخت لاحقا ان الشتيمة (ابن اليهودية) إنما لترسيخ قوة انتمائه لتلك الديانة (الاهانة) في المتخيل الديني.

وحيث أن المقدس حالة وجدانية تمد الإنسان بطاقة خلّاقة إذا تصالح معها فأني أظن أن أميركا أحست بأهمية الرمزية الوجدانية التي يقدمها المقدس لدى المسلمين عموما، وحجم الرغد المعنوي التي يقدمها للمؤمنين به، ولأن هدفها الإذلال والتركيح فأنها عمدت إلى توجيه إهانات رمزية للمقدس الإسلامي بغية أنهاءك تجلياته فلا يغدو باعثا على البطولة ومحرضاً عليها، لذلك يمكن فهم دخول القوات الأميركية بأحذيتهم إلى المساجد على انه اهانة رمزية للمقدس موجهة بدقة لمتلقٍ مقصود، بل لعلّي أتطرف قليلا فأقول إن عملية تفجير المرقدين الطاهرين في سامراء قد تم بمشورة أميركية لبعض الأطراف التكفيرية المتصلة بها لاسيما إن الوقائع أثبتت أن داعش صنيعة أميركية محكمة<sup>(٢٥)</sup>، بغية

إفراغ المتدين الشيعي من ثقته الروحية بمقدساته، التي الصق بها المتخيل الديني والشعبي كثيرا من الخوارق والتحصين، حيث اظهر التججير عجز ذلك المقدس عن حماية مجاله الرمزي من الانتهاك، لذلك كان ذلك الفعل نوعا من التلاعب بالمتخيل الديني الذي جعل من ذلك المقدس سطوة خارقة غير قابلة للانتهاك، من خلال استنزاف تجربة المقدس بشكل تجريبي، تنتج بمرحلة لاحقة إمكانية ترويض المتدين الشيعي من حماسه الديني، عبر تحييد الطاقة التي يستمد منها تحدياته، تلك الاهانات الموجهة تدسها أميركا إعلاميا وسياسيا بغاية تبخيس خميرة المقدس فلا يعود المرء مدججا بأسلحة رمزية بطريقة مخاتلة ومخملية، لأن تجريده من تلك القوة الغامضة كفيل بإضعافه ومن ثم استسلامه لكن كل ذلك المكر يتم تمريره بطريقة مخاتلة ومغلقة "فالذل الأكبر في نهاية المطاف حين لا نعود عارفين لمعنى الذل"<sup>(٢٦)</sup>.

#### الاهانة الثقافية

عمد الاستعمار إلى خلق تصورات ثقافية تجاه الشعوب المستعمرة بما يكفي لخصائها عبر تعمد إعادة انتاجها دوريا؛ التكرار الذي يكفي لترسيخ التصور على انه حقيقة ثابتة ويمكن النظر لرؤية البريطانيين تجاه الهنود ومحاولة جعل اصطلاح هندي رديفا للسذاجة والغباء نوعا من أنواع الاغتيال الثقافي للآخر، واغتصاباً ممنهجا بغاية التكريح والإذلال المتخيل، فتكرار ذلك التصور وتعميمه مناورة ثقافية لأجل ترسيخ الشعور بالتبعية والدونية لذلك السيد المتخيل، إذ "إن تفوق الغرب على الشرق لا يعود أبدا إلى النظام الذي كان يعدنا بالمظاهر القديمة: فالتفوق ليس أخلاقيا؛ ليس الحرية التي بفضلها ينتصر في الأخير، وليس حقوق الإنسان، إن تفوق الغرب على الشرق يكمن في اكتشاف وسيلة المناورة الباهظة الثمن لأنها ذكية، لا تؤلم، بارعة، لا مرئية وناجعة"<sup>(٢٧)</sup>، لذلك فالهندي الذي يتكرر على مسامعه سماع كلمات الاحقار من السيد البريطاني يؤمن بقدرة التكرار السحرية، التي لها قوة أداء العدوى الوجدانية، على أنه فعلاً من مرتبة متدنية، وهو التصور الذي ترسب لاحقا لدى كل الجغرافيا التي تمددت عليها بريطانيا حتى أن الذاكرة الجمعية في العراق لا زالت إلى الآن ترث اصطلاح هندي بما يشير به للساذج والغبي، فالمستعمر عادة يعتمد إلى تمرير نوع من الاهانة الثقافية في الوعي الاجتماعي لدى الدول المستباحة كنوع من أنواع كسر الإرادة لدى تلك الشعوب، وتغليب قناعات اصطناعية لدى أبناء تلك الشعوب بما يشعرها بالعجز والدونية إذا ما علمنا أن ترسيخ مبدأ الدونية يعد أولى مراحل التمكين، ويمكن تذكر تسمية البريطانيين بعد احتلالهم للعراق ١٩١٤ لأهل الناصرية (محافظة ذي قار) باصطلاح الشجرة الخبيثة على أنه نوع من التوهين الرمزي الذي يعزز الدونية لدى أبنائها، بعد أن يكون تكرر ذلك الاتهام المقلب، خميرة لتكريس جرح نرجسي جماعي

مهين، والدونية هنا تعني استساغة التلذذ بالتفاهة باعتبارها قيمة مجهولة وهو ما يجعلنا نتفهم قول آلان دونو " أن التفاهة تشجعنا على الإغفاء بدلا من التفكير، النظر إلى ما هو مقبول وكأنه حتمي، وإلى ما هو مقبوت وكأنه ضروري: أنها تحيلنا إلى أغبياء، فحقيقة أننا نفكر بهذا العالم باعتباره مجموعة من المتغيرات المتوسطة أمر مفهوم، وأن بعض الناس يشابهون هذه المتوسطات إلى درجة كبيرة هو أمر طبيعي"<sup>(٢٨)</sup>. فعملية صنع التصورات الجاهزة تعد أحد أهم وسائل السيادة والهيمنة فهي وجه من وجوه الاغتيال الثقافي للأخر، بغاية سلب وعيه وتعبئته بوعي جديد يحمل تصورات الأخر عنه وليس تصورات هو عن ذاته ، وهو الحمل الذي سيجعله فاقدا للإرادة والثقة بالذات التي تؤهله للصدوم ، على وفق ذلك يمكننا تفهم ما يتم الترويج له إعلامياً حالياً: أن الشيعة في العراق غير مؤهلين للحكم والسلطة ، وأنهم كانوا على الدوام راضين بمحكوميتهم غير ميالين للعنف في ظل الاستعباد المخملي الطويل، وفي الواقع أن الترويج لتلك التصورات يضر ترسيخ مبدأ الدونية والشعور بالعجز وعدم الثقة بما يعجل من إمكانية اصطياد وعيهم ، وقبولهم بالتخلي عن الواقع لصالح أقدار التاريخ ، على أن الملاحظ أن تلك التصورات المكررة لا تروج في إطار الاهانة ، كي لا يتم استنزاف الضحية ومن ثم نبذها للأفكار الهجينة التي يراد تعبئتها بها، لكنها في الواقع تجيء في إطار العنف الرمزي الناعم الذي يسعى لترسيخ شعور عام يؤهل الخاضعين له على القبول بواقع جديد ، بذات المجال يحاول البعض ترسيخ صورة نمطية عن السنة محملاً إياهم أوزار أخطاء كل الطغاة في التاريخ القريب والبعيد ، كأنهم مسؤولين عنها لذلك يعزز الحاكم الجديد في إعلامه الموجه تجاه أنصاره أن السني العراقي بكل حال يحمل في أعماقه أجنة الدكتاتور، بل أن الصورة النمطية التي أشيعت بغاية الإقصاء والاهانة الثقافية أن كل سني عراقي يحمل بذرة الإرهاب في داخله ومتى ما تعززت لديه الفرصة صار ذبّاحاً ، محاولة منه لتعزيز القطيعة الاجتماعية والثقافية وهي الانقسام الذي سيدوم سلطاته، إذ أن الترويج لتلك الاهانة الثقافية ستجعله يبدو منقاداً في نظر التابعين له ، وهو ما سيجعله يعزز هيمنته وفرص بقائه زعيماً ، تنظر له الجماهير المخدوعة بوصفه البطل الذي سينقذهم من أوهام التاريخ وفخاخه ، فعملية الترويج لقرابة رمزية بين السني العراقي و صدام حسين تعد نوعاً من الاهانة الثقافية التي تضمّر رغبة في التشويه والتشويش على الآخر لكي يظل متعفناً في ذلك الاتهام، ثم يستغرق في الدفاع عن اتهام لا دخل له فيه فينشغل به طويلاً، بما يجعل مواطنته منقوصة في نظر الشريك ، وهو الاتهام الذي سبقه مغلولاً على الدوام فيتسنى للحاكم الجديد التمتع بحكمه والتحصن من المناوئ التاريخي، وفي الواقع أن الاهانة إن انتكأت على التاريخ الثقافي للجماعة كانت اهانة ثقافية أما إن ظلت أسيرة الواقع وضروراته فستظل اهانة ايولوجية

وسياسية، من جانب ثان يمكن النظر بحيادية بعيدة عن التعصب لفرضيات العرق النقي والمتفوق التي تتطرف في بثها اليهودية على أنها اهانة ثقافية موجهة بغاية التبخيس والاصطفاء والتي أورتها لسواها حتى نجد أن الإسلام يفترض إن الدين عند الله الإسلام ، وهي اهانة موجودة لدى كل الحضارات والأديان تمارسها في مجال الدفاع عن سطوتها وهيمنتها الثقافية لذلك يمكن ملاحظة أن الدين الهندوسي يعتقد باصطفاء العرق الهندي ، والديانة البوذية في التثبيت ترى بالعرق التيبتي عرقا سماويا، فيما يرى البوذيين اليابانيين أنهم عرق مختلف وإن ملوكهم أبناء الشمس وهكذا باقي الحضارات والديانات، هذا الفرز في واقع الأمر اصطفاء متوهم و اهانة ثقافية مقصودة للآخر وتعزيز لسلطات الذات الجمعية، وفي الواقع أن تتميط صورة الزنجي تمثل نوعاً من الاهانة الثقافية التي تضمّر قبولاً واستسلاماً لدى ذلك الكائن المسكين ليظل ملتذا باستعباده .

من جانب آخر يمكن النظر إلى كارتون توم وجيري على انه تمرير لإهانة ثقافية مقصودة بغاية بث قناعة تتعلق بان الكبير ليس هو السيد دائماً بل أن الصغير إذا امتلك الذكاء والمناورة الكافية ليكون سيدا فانه يمتلك الحق بذلك ولعل لليهود الذين يحتكرون الإعلام دور رئيس في تمرير تلك الاهانة الثقافية لأنه سيسوغ سيطرتهم على العالم بحكم امتلاكهم المال والهيمنة، إذ " تنبع الاهانة من إرادة واعية في التعدي على كرامة الآخرين، وليس فقط عن الهيمنة،إنها أحد الأمور الأكثر انتشارا اليوم عالميا بفضل مستخدميها ومن يحافظون عليها"<sup>(٢٩)</sup> ، فسبايك الكلب الضخم أو توم القط صاحب الاحتكار الطبيعي لأكل الفأر جيري بحكم الخاصية البايولوجية سيظل عاجزا عن التفوق على الفأر مهما امتلك من القوة والحجم البايولوجي لان الفأر الصغير بما يمتلكه من قدرة مناورة وذكاء سيجعل الكلب أسير مقالبه ، وسيظل الفأر على الدوام متفوقا عليه لأجل تبرير خطاب يتعلق بأن الضعيف ليس هو الخاسر دوما بما يعزز قناعات الأطراف المتضخمة بالخضوع لمن هو اصغر منها وتسويغ السلبيات " ومن أبرزها إضفاء هالة من الذكاء وخفة الدم على اللص الانتهازي «جيري»، وتقديمه في صورة الضحية الجذابة التي تستحق التعاطف، حين يسرق الجبن من الثلاجة مثلا، وإظهار القط الذي يقوم بواجبه في صورة الغبي عدو البطل، وذلك يحمل قيمة سلبية واضحة، فهل المطلوب تعليم الصغار نصرة الظالم"<sup>(٣٠)</sup> ، فالظاهر الجمالي من الكارتون السخرية والمفارقة المضحكة التي تجعل الأطفال يستمتعون بذلك لكن المضمّر من الخطاب ترسيخ القناعة المعلبة لدى الأطفال بكيفية صناعة القناعات الجديدة ،فالثابت عرفا أن القط و الحامي للبيت من القوارض وغيرها لكن المسلسل يعمد إلى قلب الحقائق وإظهار القط بدور العابث فيما يتولى الفأر الضعيف مهمة الحماية والتسديد ، فالقط يماثل الساكن للدار لأنه يشاركه ذلك فيما يماثل الفأر دور المحتل الطامع لكن الطفل سيخرج

بعد انتهاء أية حلقة من المسلسل بقناعة مستدامة وهو سعيد بنتائجها : أن القط الغيبي لم يقدر ولا مرة على الإيقاع بالفأر وإمساكه، وهكذا مرارًا وتكرارًا وعلى مر الأيام ستترسخ فكرة هدامة في أذهان الأطفال : أن المحتل وإن كان كريها كالفأر فهو أحسن بكثير من الذي يصارع ذاك الاحتلال ويعمل جهده لإخراجه وإن كان أليفا ومحبا كالقط، أنها بواقع الأمر إهانة ثقافية مقصودة ،تبرر الاستباحة الاستعمارية التي تمارسها الأمم المستبدة تجاه أبناء الشعوب المغلوبة ثم تجعل أبناء تلك الشعوب ينظرون لمن يدافع عن مصالحهم ويقاوم ذلك المحتل ،غيبا ساذجا يجب إيقافه عند حده المخرب، فالكلب والقط جزء رئيس من البيت يمثلان دور الحارس له، لكن المسلسل يبور نسقا مضادا يتمثل أن الطارئ الذي لا دور مؤسس، له ، في البيت يبدو أكثر حرصاً ومسؤولية على البيت من أجزائه المؤسسة، مما يعزز فرضية أن الآخر وإن بدا منقطعا وغريبا عن الأصل المؤسس فإنه يكون أكثر حرصا على حماية البيت وتحصين النظام فيه، بذلك فإن المقاومة الشعبية لا تحمل سمات المشروعية بل لعل المحتل يحمل خصائص مغيبية تجعل من القبول به أمرا مسوغا، مثلاً ما تم ترويجه مؤخراً حين حاول الإعلام الإسرائيلي إظهار إنسانية المحتل وحرصه على حياة المفاوضات التاريخي الذي ارتبط اسمه بتبخيس اليهود وكيفية إخراجهم صائب عريقات في نقله لمستشفى هداسا الإسرائيلي وحرص الأطباء اليهود على إنقاذ السياسي الفلسطيني الذي لا يضم سوى فلسفة إبادة إسرائيل التي يتم ترويجها صفة لصيقة بكل فلسطيني ، محاولة من ذلك الإعلام لتسويق فرضية أن اليهودي الطارئ أكثر إنسانية ونظاما من الأصل الذي لا يحمل سوى فرضية إبادة الآخر ، وهو نسق يقارب ما حاول الأمريكان إشاعته بعد احتلال العراق حيث أشاعوا فكرة أن العراقيين (علي بابا) غير حريصين على بلادهم فيما ظل الأميركي حاميا للنظام بمقابل الفوضى ،فيما كان الواقع الخفي أن أميركا مسؤولة مسؤولية مباشرة عن كل خراب ثقافي وسياسي واجتماعي في العراق، وأنها كانت تؤسس للفوضى لتتمكن من البقاء طويلا متحكمة بالمصير الوطني والاقتصادي للعراق، وبقدر ما اظهر الإعلام والسينما الأميركيان العراقي كسارق غبي لبلاده ولا يمتلك أدنى شعور بالانتماء لكيفية صيانة الممتلكات الوطنية فقد اظهر الأميركي سوبرمان وبطل عالمي يتجاوز العناوين الشخصية لينتمي للإنسان حتى أصبحت صورته رديفة للإيثار، وفي الواقع فإن تلك الصورة المتهمة يراد تمريرها على الرغم من كونها اهانة ثقافية مقصودة لان فلسفة الصورة الإعلامية تجعل من الكذب الممنهج مادة أولية بلورة قناعات اصطناعية لدى الآخر ولدى المواطن الأميركي نفسه .

بهذا المعنى يمثل الإعلام المرئي دور المحرض على فعل الإهانة سواء كان ذلك عبر الترمويه الايدولوجي والتلاعب بوعي الجماهير أو من خلال سرقة وعي الناس عبر التشويق الذي يمارسه

الإعلان الإعلامي بهدف صناعة اقتناع اصطناعي مموه حتى أن " مدير سابق لأشهر قناة تلفزيونية فرنسية قَدَم ذات يوم اعترافاً أصبح مشهوراً ، مفاده أن دوره يتمثل في خلق (دماغ جاهز) لتلقي إعلانات زبائنه .كيف يتم الحصول على هذه الجاهزية ؟ بالجريان المستمر لدفق الصور التي تتولى حركتها مسؤولية تحقيق سلبية استقبال الصور. وتضاف بطبيعة الحال إلى هذه التعبئة للنظام البصري تعبئة المسار السمعي بكلمات وأصوات تكمل الغواية "(٣١) ، بهذا المعنى الإعلان مهما بدا مشوقاً في واقع الأمر هو اهانة ثقافية لأجل سرقة خيارات الوعي لدى الناس واستنزاع وعي مقلب جاهز يتم صناعته وشرائه، ويمكننا القول أن الاهانة هنا رمزية لا يشعر الإنسان بوطأتها -كالعنف الرمزي تماما- فهي مؤثرة لكنها غير محسوسة ولا يتناقل المرء منها لكونها تكون مغلقة بمبررات منطقية ،ناعمة ومزوقة

### الاهانة السياسية

التنافس الايدولوجي والسياسي جعل الاهانة السياسية ضرورة قصوى لإزاحة الآخر وتسقيطه وإنهاك رأسماله الرمزي وتمثل النكتة السياسية أحد فصول تلك الاهانة لابتداء مركزية متخيلة تجعل من الهامش ضئيلا ومتلاشيا ، إذا ما أخذنا بالحسبان أن الايدولوجيا في الشرق خصوصا حلت محل الدين الذي كان يمارس سطوته الإقصائية بفعل قوته الميتافيزيقية التي تجعل استقبال الفرز الذي يقوم به ،بوصفه فرزا سماويا، لا يقبل الدحض أو النقض ،فأنظمة الشرق الشمولية اعتقدت أن الايدولوجيا ،باحتمالها دور الدين ستتجح بالطريقة ذاتها في احتلال مكان المعنى في رأس مواطنيها،(٣٢) ،لذلك أصبحت تلك الايدولوجيا محصنة ولكي يخترقها المرء أو يتملص من سطوتها،فإن عليه أن يتبنى خطاباً موارباً يستطيع من خلاله تحطيم السياج الدوغمائي بطريقة رمزية ،لذلك يمكن النظر إلى النكت المتداولة في الستينات والسبعينات تجاه الأكراد وسرد المفارقات التي يبدو بها طرف عربي مقتدر وآخر كردي ساذج مثير للسخرية ضمن إطار التنافس الايدولوجي القومي الذي يسعى لتعزيز مركزية السائد وزيادة هامشية المهمش، يقابل ذلك حرص الأكراد على إظهار صورة العربي بسردياتهم الشعبية بصورة الغبي الذي لا يفهم شيئا والذي يثير الضحك وكذا الأمر مع المصريين في الدولة القومية الذين كانوا يظهرون النوبي والصعيدي في الفن المرئي وفي التداولات الشعبية بالنكت وغيرها بصورة مضحكة ومبتذلة على أنها نوع من التوهين والتوهين المضاد. والنكتة في حقيقتها مفارقة بلاغية غايتها تعزيز الصدمة داخل المتلقي بما يكفي لوصول الرسالة المراد تمريرها، لذلك تتخذها المركزيات لأجل تنظيم الهامش وترسيخ تبعيته ، ويتخذها الهامش في كثير من الأحيان طريقة للتهشم الرمزي لسلطات المركزية ، حتى نجد كثيرا من المرويات الشعبية تضم اهانة رمزية للمركز من خلال النكت الساخرة التي تحاول توهين حواشي السلطة وفاعليتها عبر تلك النكت المهينة ،

ويمكن النظر بذات السياق إلى الصورة النمطية المقصودة للعربي في السينما الأميركية أو في الأدب الإسرائيلي على حد سواء فهي تضرر انساقا من الإساءة الموجهة بغاية تعزيز الفئات (الثورية) التي يراد تميطها في الذاكرة الشعبية، لذلك ظلت صورة العربي في الأدب الإسرائيلي صورة الغادر الذي ينتظر الفرصة للانقضاء على من أحسن إليه، فيما عمدت السينما الأميركية في مجال إساءتها للعربي بإظهاره ماكينة جنس لا تفهم شيئا سوى إشباع ما بين ساقيه ،مع إظهار بلاهة نمطية تجعل منه أضحوكة لدى المتلقي ،بهذا المعنى فإن السينما أداة ثقافية تسعى لترسيخ رؤية ووعي يمارس دور الخميرة في إقناع المتلقي المعين بالخطاب لأجل التصالح مع التفاهة الموجهة له من أجل تبنيها خيارا نهائيا لوجوده" فالتفاهة خطاب موجه يصعب إدراك صانعيه فصانع التفاهة مبني للمجهول ،ولكن شروطها مبنية للمعلوم، وبطبيعة الحال نحن نتحدث هنا عن تلك التفاهة الموجهة لجميع الفئات المجتمعية، ومنه يمكن أن نصف التفاهة بأنها عنف رمزي ،لطيف، ووديع، نرغب فيه ونخترط فيه بلغة بيير بورديو ،ونحن نضيف أن ذلك يتم بوعي أو بدونه. فمادامت الشروط والظروف لم تتغير فالتفاهات ستبقى دائما، والقالب الذي توجد فيه هو الذي يجعلها تستمر، فمن الواضح أن الإعلام وبقية مما جعل أغلب متلقيها متأثرين بها بشكل كبير"<sup>(٣٣)</sup>، من هنا يتوجب علينا أن نفهم إن الاهانة الموجهة تسعى لتكريس حالة التفاهة في ذات المستقبل للخطاب .

في الواقع تسعى الايدولوجيا عموما للهيمنة على الواقع بكل تحولاته ، وتطرح افتراضاتها على الدوام بوصفها حقائق دامغة، وأنها التطبيق الوحيد الذي يلاءم الواقع الذي تتحرك فيه ولأجله ، لذلك فأنها تسعى لإزاحة كل مناوئ ينافسها في الاستحواذ على الجماهير التي تتوجه إليها ، ولكي تكون الإزاحة تامة فإن إستراتيجية المواجهة تعتمد على التبخيس والتسفيه الموجه لتلك الايدولوجيات المنافسة لكي تجعلها مفرغة من كل عناصر القوة التي يمكن من خلالها أن تجتذب الأتباع، لذلك فإن أية ايدولوجيا تزدهر في ظل فرضية ثابتة : أنها ترى بسواها من الايدولوجيات علامات للفراغ والخراب والخطأ ولكي تبرهن ذلك تعتمد إلى توجيه الاهانات الفكرية لتلك الايدولوجيات لكي تعربها أولا ولكي تطرح نفسها كبديل محصن ثانيا والمثير للسخرية أنها بإطار محاربتها واهانتها السياسية لنظائرها تعتمد إلى فضح التطبيقات الايدولوجية وتفكيكها ، وثُبُخس ما تفرزه من واقع في حين تظل هي في الواقع متشبثة بإطارها النظري، فالقد وجدت السلطة الوسيلة الخفية لان تحتل فينا أمكنة الدفاع بل وان نستنفد حتى طاقتنا ،ضعف يأتي بدون مبرر، ولا يصبح مدركاً على نحو مفاجئ إلا بالصدفة"<sup>(٣٤)</sup>، لذلك حين حاولت الماركسية مثلا توجيه إهاناتها السياسية للرأسمالية لم تناقش فلسفة الليبرالية ورؤيتها للواقع وإنما توجهت لتطبيقات تلك النظرية وسلطت الأضواء على الثغرات التي تصاحب سوء التطبيق وهي

ثغرات لا تدحض فعالية النظرية؛ أية نظرية ففشل التطبيق في نظام ما لا يعني فشل النظرية بكل حال. وكذا الأمر مع سجال الغرب الليبرالي في سبيل تحصين جبهته الداخلية أمام المد الشيوعي فإنه لم يناقش يوتوبيا النظرية الماركسية وما تتطلع لتأسيسه بقدر تسليطه الأضواء على بعض الصور المشوهة التي صاحبت تطبيق الماركسية في العالم، وفي الواقع فإن بعض الايدولوجيات تهين ذاتها بذاتها إذ أن نقل التجربة الايدولوجية الخاصة بنمط معين من الثقافة والمجتمع إلى مجتمع آخر مغاير وتجاوز خلفياته المعرفية والثقافية والدينية تحمل في بصماتها الاهانة له لان خصوصية أي مجتمع تجعل تعامله مع الايدولوجيا ذا مدلولات خاصة .

ويمثل الإعلام في العادة الأداة الثقافية التي تنقل الاهانة للمتلقى؛ لا بقصد أهانته وإنما لاهانة الأفكار المناوئة التي تتغلغل لضميره، فقد " أصبح مجتمعنا وقد تحول إلى مجتمع إعلامي، يسمح بالحلم بسلطة لها أن تقرر الخلفي عن العنف لأنه لم يعد لازماً للهيمنة، من دون أن تخسر السلطة شيئاً من طبيعتها القمعية، لم يعد القمع بالقوة ضرورياً لأي إخضاع مادام يكفي احتلال العينين لأجل شغل الرأس ، ومعه مكان الاحتجاج المحتمل"<sup>(٣٥)</sup>، وعلى وفق ذلك تشكل الصورة في الإعلام المرئي أو المقروء رسالة مكثفة وموجهة في أن معا من اجل تشكيل وعي وقناعة معلبة لدى المتلقي تتأسس على وفق إرادات مغايرة فلو استقرنا مثلا إشهار الإعلام الأميركي لاهانة المعتقلين في أبو غريب على الرغم من أن ذلك الإشهار يوفر فرصة لإدانة الأميركي نفسه لكن الواقع يفصح عن هدف آخر يجعل النتائج مختلفة فتكرار مشاهد الإذلال يزيد من مشاعر الإحباط وكسر الإرادة لدى الآخرين ممن لم يتسن اعتقالهم بذلك تكون أميركا خسرت قليلا من السمعة (الإنسانية) لكنها رحبت هدفا غالبا يتجلى في إرسال أسلحة نفسية نحو الذين لن تروضهم بأسلحتها التقليدية ، إذ" يشكل الإذلال على الصعيد الدولي رابطا بين المآسي الخاصة ، كمأساة تلك المرأة الفلسطينية التي احتجزت ، وهي على وشك أن تلد، على إحدى نقاط التفتيش الخمسمائة التي أقامتها سلطة الاحتلال الإسرائيلي. يمكننا أن نستذكر أيضا الإحساس العميق لذلك الأفغاني وهو يشاهد في ١٣ كانون الثاني ٢٠١٢ الفيديو الذي يصور أربعة جنود أميركيين يبولون على جثث ثلاثة أشخاص من طالبان، أو شعور مواطن عراقي وهو يطّلع على التجاوزات التي ارتكبت في سجن أبو غريب ...إن التكرار اليومي للمشاهد الانتقائية التي تتم عن الانحطاط يمثل وجها آخر للإذلال"<sup>(٣٦)</sup> وهو الإذلال الذي يساهم في تكريس الخضوع وهزم الإرادة لدى الذين يستقبلون تلك الرسالة الإعلامية ولا يملكون وسيلة مواجهة مكافئة.

فسدنة أية ايدولوجيا يتوجهون في خطابهم لجماهيرهم في تفكيك خطاب الايدولوجيات المنافسة بوصفهم وسيطا لينا يمكن من خلاله فضح الآخر والتبشير بحسنات افتراضاتهم ثانيا، فهي بالواقع

تمارس خشونة الفعل الناعم تجاه الأتباع وليس النظرية المنافسة، ذلك أنها تمارس اضطهاد السطوة بأدوات مخملية لكونها تتوجه بقمعها الناعم تجاه مستخدميها أو جماهيرها الخاضعة لكنها تبطن الخطاب بتبخيس المناوئ، فالهدف المتبع من قبل لدن الأسياد الجدد لوسائل الإعلام هو في الآن ذاته مماثل وأعتى فسادا لأنه يرمي إلى الإخضاع دون أن يحسّ الوعي بالإخضاع، هذه العملية مربحة جدا ما دام بالإمكان بيع الخاضع مرتين: مرة كمستهلك يجب إغراؤه ولأنه في مرة ثانية تم إغراؤه بالقوة فيستهلك<sup>(٣٧)</sup> وإذا كان الخضوع يعني استمرار التبعية فان الاستهلاك يعني ضمان التصديق بافتراضات تلك الايدولوجيا والاستسلام كليا لها، فالاهانة الايدولوجية لا توجه للنظرية المناوئة بطبيعة الحال لان النظرية تظل متقدمة في مجالها المنعزل، لكن القيمين على السلطة في الواقع حريصون على إدامة مفعول التوهج الايدولوجي لدى الأتباع من خلال التحصين من الآخر ولا يكون التحصين ناجعا بغير اهانة أية منافسة محتملة.

#### الاهانة الاجتماعية

تبدو الشتيمة فعل انتهاك اجتماعي غايته الرئيسية توجيه اهانة مشخصة لآخر، وغاية الشتيمة في الواقع استبدال رمزي للواقع المشيد بأخر متخيل عبر الافتراضات المتخيلة التي تهيئها للشتيمة للمرء بـ"مسخ" الآخر وإعادة تشييده لغويا، فالشتيمة ممارسة لغوية تعكس موقفا موازيا من العالم والإنسان عموما، وخطاب الشتيمة وان انزوى بفعل الاصطفاة الثقافية ليغدو خطابا هامشيا مسكوتا عنه، لكنه في الواقع مؤثر بقوة فنحن ننبذ ونلذذ بممارسته في آنٍ معا، وبفعل الإقصاء الذي مارسه الثقافة فقد ظلت الشتائم كنسق مختبئة، تحت أستار الشفوية، لان إظهارها في الخطاب المكتوب، يعد نوعا من الابتذال الذي نبذته الثقافة، لكننا يمكن أن نرصد شتائم بغاية التوهين في النصوص المقدسة فقولته تعالى (فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) "الاعراف ١٧٦" إذ يورد احمد ابن حنبل في مسنده حديثا عن النبي (اعتقد جازما باصطناعية ذلك الحديث لان النبي أسمى من أن يكون مفحشا) بقوله حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَبَّاسِ الْبَاهِلِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ: عَنْ أَبِي " : أَنَّ رَجُلًا اعْتَرَى فَأَعَصَّهُ أَبِيٌّ بِهِنِ أَبِيهِ. فَقَالُوا: مَا كُنْتَ فَحَاشًا! قَالَ: إِنَّا أَمْرُنَا بِذَلِكَ" <sup>(٣٨)</sup> وفي البخاري أن النبي سكت ولم يعقب على الكلام الفاحش الذي قاله أبو بكر لعروة بن مسعود الذي حاول تنكير الرسول بالأواصر الاجتماعية التي تربطهم بقوله "فأتاه أي عروة بن مسعود. فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي نحوا من قوله لبدل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرايت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى فإنني والله لأرى وجوها وإنني لأرى أوشاباً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر :

اممص ببظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه<sup>(٣٩)</sup>، إقرار البخاري أن النبي سكت عن قول أبي بكر إباحة له ، والحقيقة أن الإنسان حين يعجز عن المواجهة أو لم يمتلك أدوات التغيير يجد في الشتيمة معادلا رمزيا لاحتواء هزيمته، فلا غرو أن نجد إن مظفر النواب يجد في البذاءة نوعا من وسائل الاستبدال الرمزي بعد أن عجز عن إيجاد وسائل التغيير الواقعية ،لذلك جاء خطابه صادماً مليئاً بالشتائم التي تؤهله لتوهم الانتصار:

أولاد القحبة هل تسكت مغتصبة

أولاد القحبة

لست خجولا حين أصارحكم بحقيقتكم

إن حظيرة خنزير اطهر من أطهركم

تتحرك ذكة غسل الموتى

أما انتم

لا تهتز لكم قصبة<sup>(٤٠)</sup>

وتبدو الشتيمة الجنسية أثيرة لدى العربي عموما لما لرمزية الأنثى من فعل مهيمن في الضمير الجمعي وهي الرمزية التي جعلت الإنسان العربي يستسيغ قتل فلذة كبده وهي طفلة على الرغم من أن ذلك الفعل المتوحش يبدو مستحيلاً، لأن في أعماقه خوف مستبّد من احتمالية استباحتها، بفعل طبيعة الحياة التي يعيشها التي يبدو فعل فيها الغزو قيمة مهيمنة، قد تؤدي إلى أن تؤسر تلك الطفلة بعد أن تكبر وتبدو سبية، وما يشكله ذلك الفعل الرمزي من قوة انتهاك مهينة لديه ، جعله يجعل القتل حلا ، لأنه إن تركها حية ،قد يقع بفخ احتمالات الإذلال الذي يبدو سمة بنيوية من سمات المجتمع البدوي، ولعل الخذلان النابع من سبي المرأة يظل كالوشم في الذاكرة الجمعية لا يمكن محوه أو تجميله مهما تبدلت الأحوال ، ف"الإذلال هو جزء من الذاكرة، هو سيرة جماعية، لا بل-وهذا أمر محدد- انه نص تأسيسي لا يمكن إلغاؤه بمرسوم"<sup>(٤١)</sup>.

في ذات السياق الاجتماعي تبدو فلسفة الشتيمة تقوم بالأساس على تعليب الاهانة لتغدو حركة مقاومة رمزية باستخدام اللغة أو الحركة الجسدية، ف"الهجاء يولد من غريزة الاحتجاج، فهو احتجاج صار فناً"<sup>(٤٢)</sup>، ويبدو تاريخ الهجاء الشعري العربي بمعظمه تاريخ للشتيمة المعلبة التي تخفي انساق الاهانة في تفاصيلها المضمره، وإذا كان المديح ضرورة من ضرورات نمو الفردانية لدى الشاعر بعدما كان صوت القبيلة التي كان فيها صوته مضمخا بصوت القبيلة الجمعي وهي الفردانية المكتسبة التي أقرت فيه روح التكسب والتي كان من نتائجها أن أصبح المديح واجهة وجودية للشاعر ، فالمدح

والفردية وجهان لعملة واحدة، إذ لا يمكن للمداح إلا أن يكون فرديا متمصلحا، ولا بد أن يكون كذابا ومبالغا، ولا بد أن يصور الباطل في صورة الحق، ولا بد أن ينتظر مقابلا ماديا كئيبا لكذبه البليغ<sup>(٤٣)</sup>، فإن الهجاء طريقة مغايرة من طرق التكسب أيضاً، فالشاعر المداح الذي كان يمدح ليحصل على صرة من الذهب مقابل بلاغته، وكذبه الجميل، حين لم يجد من يمدحه لينال جائزة يعيش بها صار يبحث عن يذمه ليتكسب بذلك الذم، من خلال معادلة المال مقابل إسكات اللسان وهي الإستراتيجية التي جعلت الفرزدق يصف نفسه "أنه عذاب على الناس ونقمة عليهم وانه في خدمة اللئام يرفع لهم أسماءهم، مما أدى إلى محاولات لشراء الأعراض من الشعراء كما فعل عمر بن الخطاب مع الحطيئة وتكرر ذلك مع الفرزدق وكتب الأدب تمتلئ بالتحذيرات من الشعراء والحث على تجنبهم وعدم التعرض لهم فهم ذوو ألسنة حداد"<sup>(٤٤)</sup>، فالهجاء وسيلة ارتزاق موازية لكونها نوع من صناعة الهيمنة الرمزية بواسطة اللغة، فالشاعر العربي الهجاء كان يبتغي من الإسفاف في التصوير المبذول للأخر إنما يريد تبخيسه وصناعة واقع مواز لوجوده بغاية التسقيط والاهانة، لذلك ظل التشنيع الخلفي أو توجيه الصورة نحو الأنثى القريبة من الشخص المراد تشنيعه إحدى الوسائل الأثيرة للشاعر كي يتأكد أن سهامه نفذت إلى ذات المهجي فقول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأهمهم بولي على النار

فتمسك البول بخلأ أن تجود به وما تبول لهم إلا بمقدار<sup>(٤٥)</sup>

فتوجيه التشنيع باتجاه الأم يضمن مهمتين؛ الأولى توجيه المركزية نحو الأم وهي مثلبة لدى العربي في ظل هيمنة فحولية سائدة واستحضار الأنثى بطريقة مشوهة، وهو الاستحضار الذي يهيئ آلية تمركز نسقية للاهانة بسبب أن الأنثى تمثل منطقة توهين رخوة لدى العربي، والمهمة الثانية إظهار الرمز المؤدى بطريقة مهينة، إذا ما علمنا أن الكرم لدى العربي عموماً فعل وجود تام يتلاشى في حال تناقص أو تضاعف، فالقد كان الكرم-وما يزال لدى البدو- قيمة وجودية أشبه ما تكون بالحفاظ على النوع، فأنت تكرم ضيفك لأن عدم استضافته يعني الموت ونهاية حياته في الصحراء المهلكة، وهذا مصير ستواجهه أنت أيضاً فيما لو انقطعت عادة الضيافة الصحراوية، والبدوي كان مترحلاً بالضرورة، لذا فإنه يظل محتاجاً لمن يقبل بضيافته، ومن ثم فإن المحافظة على فكرة الضيافة هي ادخار معنوي قيمى يدرأ عن الذات غوائل الجوع والضياع اللذين سيكونان المصير المحتوم فيما لو اختفت قيمة الكرم والضيافة من الثقافة الصحراوية<sup>(٤٦)</sup>، فسلب الرجل تلك القيمة وإحالتها للأنثى فيه نوع من سلب الرجل قيمة معنوية مهمة، على أن توجيه الهجاء للأنثى في خطابه للرجل لا يعني انتقال المركزية بكل حال، فقد يعني ضمان وصول الاهانة للشخص لان المرأة لدى العربي ظلت عنواناً محصناً وأي

انتهاك له يعني الجلد الثقافي بما لا يمكن رده، ويمكن متابعة ذلك النسق في معظم شعر الهجاء العربي حتى أن المتنبّي حين أراد هجاء ضبة بن يزيد العتبي لم يجد غضاضة في استدراج أمه للمواجهة لتكون عرضة لسهامه لان الأنتى لدى العربي أفضل مكان للوجع لقيمتها الرمزية لديه:

ما أنصف القوم ضبّه وأمه الطرطبه  
رهو برأس أبيه وباكوا الأم غلبه  
فلا بمن مات فخرا ولا بمن نيك رغبه  
وإنما قلت ما قلت رحمة لا محبة  
وحيلة لك حتى عذرت لو كنت تبيه  
وما عليك من القتل إنما هي ضربه  
وما عليك من الغد وإنما هي سبه  
وما عليك من العار أن أمك قحبه  
وما يشق على الكلاب أن يكون ابن كلبه  
ما ضرها من أتاها وإنما ضر صلبه  
ولم ينكها ولكن عجانها ناك زبّه<sup>(٤٧)</sup>

هذه الحلقة الخلاعية التي أوقدها المتنبّي إنما في الواقع محاولة لإهانة الآخر وتبخيسه، عبر استثمار الاستراتيجيات الثقافية التي تجعل من ذلك المناوئ ضعيفا ثقافيا، بعملية إنهاك رمزية تجاه الرأسمال الاجتماعي التي يتمتع به ذلك المناوئ واهانته.

ويؤدي الكاريكاتير الثقافي دور توجيه الخطاب نحو مقاصد نسقية من خلال الصورة الفانتازية التي يحاول الشاعر من خلالها تبرير مضمّر نسقي مؤثر فيه كثيرا فابن الرومي ذو النسب غير العربي يشعر بعنصرية مضمرة لا تكافئه بسواه لذلك فهو حين يتعرض بالهجاء لآخر يعمد إلى استثمار تلك الفجوة التي تحفر في أعماقه اهانة رمزية كبيرة ليعيد إنتاجها على الآخر من خلال الصورة الكاريكاتورية ذات الملامح الثقافية التي تجعل التأويل يتحرك ضمن أبعاد تتواءم ومضمراته النسقية، ومن ثم فهو يضمن وصول الإهانة طازجة لمن يردها أن تصل إليه لأنه يشعر بوطأتها بالأساس :

عجب الناس من أبي الصقر إذ ول  
ي بعد الإجازة الديوانا  
ولعمري ما ذاك أعجب من أن  
كان علجا فصار من شيبانا  
إن للجد كيمياء، إذا ما  
مسّ كلبا أحاله إنسانا  
يفعل<sup>٤٨</sup> لله ما يشاء كما شا  
ء متى كائنا ما كانا<sup>(٤٩)</sup>

### الخاتمة

الاهانة فعل ثقافي بالأساس لا يقف عند حدود الانتهاك وإنما يتعداه إلى محاولة صياغة هامش موازي للطرف الموجه له خطاب الاهانة، هذا الهامش يكون بديلا اصطناعيا كافيا لبلورة قناعة مؤقتة لدى طرف ما، بأنه تمكن من التوازي مع من لا يملك الأدوات الواقعية للتنافس معه، لذلك بدا فعل الاهانة في الأغلب فعلا لغويا وممارسة ثقافية يلجأ إليها الإنسان لكي يحصد نوعا من الاستيلاء الرمزي على آخر أقوى منه، وحيث أن عملية الاستحواذ الثقافي تمر من خلالها عملية محو متخيلة لنتاج الآخر فأن فعل الاهانة يمثل احد اذرع المحو الاصطناعي لان التهوين وتكريس الثانوية احد أدوات الهيمنة كمفهوم ثقافي يسعى لتهميش أية انساق منافسة ولا يمكن لأية مركز أن يتحول إلى هامش إلا في حال إثبات عطب تمركه أو في حال صياغة مدارات جديدة تساعد بتحويل الهامش ليكون مركزا وقطبا جديدا، وهو ما تقوم به فلسفة الاهانة بالواقع لكونها تتحرك ضمن إستراتيجيتين؛ إستراتيجية رفع الهامش إلى مستويات الصيرورة والتشكل وإستراتيجية خفض المتمثلة بإنهاك المركز وتشتيته عبر آليات التهوين الثقافي المتعمد.

### المصادر

١. أصل التفاوت بين الناس، جان جاك روسو ترجمة عادل زعيتر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة ٢٠١٣ ط١
٢. الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر مظفر النواب : دار قنبر لندن ١٩٩٦ ط١
٣. الإنسان العاري-الدكتاتورية الخفية للرقمية مارك دوغان كريستوف لابي ترجمة سعيد بنكراد المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء المغرب ٢٠١٩ ط١
٤. الإنسان المهودر- دراسة تحليلية نفسية اجتماعية - د.مصطفى حجازي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٥ ط١
٥. الاهانة في عهد اميرالية، المهدي المنجرة المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٧ ط٥
٦. تأويل الثقافات : كيلفوردغريتر ترجمة د. محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة بيروت ٢٠٠٩ ط١
٧. تعليم المقهورين : ،باولو فرايري ترجمة الدكتور يوسف نور عوض، دار القلم بيروت ١٩٨٠ ط١
٨. تلفيق صورة الآخر في التلمود ، زياد مني ،شركة قدمس للنشر والتوزيع بيروت ٢٠٠٤ ط٣
٩. التلمود-المشنا القسم الرابع نزيقن الأضرار ترجمة د. مصطفى عبدالمعبود مكتبة النافذة القاهرة ٢٠٠٧ ط١
١٠. ثقافة تويرت حرية التعبير أو مسؤولية التعبير : عبد الهالغذامي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠١٦ ط١
١١. جنيات بني اسرائيل على الدين والمجتمع ،محمد ندا دار اللواء الرياض السعودية ١٩٨٤ ط١
١٢. جينالوجيا الدين-الضبط وأسباب القوة في المسيحية والإسلام ،طلال أسد ترجمة محمد عصفور دار المدار الإسلامي بيروت ٢٠١٧ ط١

١٣. خطاب في التفاهة : وثام سهلا -محمد مختاري ،الناظور للطباعة المغرب ٢٠٢٠ ط١
١٤. الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود:إسرائيل شاحاك ترجمة حسن خضر دار سينا للنشر القاهرة١٩٩٤ ط١
١٥. ديوان ابن الرومي تحقيق احمد حسن بسج منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٢ ط٣
١٦. ديوان الأخطل : ،تحقيق محمد مهدي ناصرالدين دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤ ط٢
١٧. ديوان المتنبي شرح عبد الرحمانالبرقوقي مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم القاهرة ٢٠١٢ ط١
١٨. زمن المذلولين -باثولوجيا العلاقات الدولية ، برتران بديع ترجمة جان ماجد جبور ،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بيروت ٢٠١٥ ط١
١٩. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيح :538-537،I، محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض ١٩٩٥ ط١
٢٠. سلطة الاستبداد والمجتمع المقهور ، صاحب الربيعي دار صفحات للدراسات والنشر دمشق ٢٠٠٧ ط١
٢١. سيكولوجية التعصب "٩ اندريه هاينال -ميكولوسمولنار-جيرار دي بوميغ ترجمة خليل احمد خليل دار الساقى بيرت ١٩٩٠ ط١
٢٢. صحيح البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري طبعة دار ابن كثير دمشق بيروت ٢٠٠٢ ط١
٢٣. الكينونة والشاشة- كيف يغير الرقمي الإدراك : ستيفان فيال ترجمة ادريس كثير هيئة البحرين للثقافة والآثار ٢٠١٨ ط١
٢٤. لسان العرب محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعالإفريقي دار صادر بيروت ١٩٩٤ ط٣
٢٥. الموجز في الالهانة : بزنان نويل ترجمة محمد بنيس دار توبقال للنشر المغرب ٢٠١٧ ط١
٢٦. موسوعة المصطلح النقدي- اللامعقول ،الهجاء التصور والخيال، الوزن والقافية والشعر الحر، المجلد الثاني ترجمة عبدالواحد لؤلؤة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٢ ط١
٢٧. نظام التفاهة : آلان دونو ترجمة مشاعل عبدالعزيز الهاجري دار سؤال للنشر بيروت ٢٠٢٠ ط١
٢٨. النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية العربية عبدالله الغدامي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٥ ط٣
٢٩. همجية التعاليم اليهودية ،بولس حنا مسعد ،المكتب الاسلامي بيروت ١٩٨٣ ط٢
- الصحف والمجلات**
١. جريدة الدستور الأردنية عدد يوم الأربعاء ١٠/سبتمبر/٢٠١٤ - ٠٦:٥٧ م مقال داعش صنع في أميركا لمحمود نبيل <https://www.dostor.org/675011>
٢. توم وجيري انتصار للظلم خلف قناع ضاحك رافع البرغوثي جريدة القيس الكويتية عدد رقم ١٦٨١١ السنة ٤٩ يوم الثلاثاء ٩ يونيو ٢٠٢٠،
٣. غزو الأغبياء ميرزا الخويلدي جريدة الشرق الأوسط في الأربعاء - ١١ شعبان ١٤٣٧ هـ - ١٨ مايو ٢٠١٦ م
٤. اللامعقول في حكاية الرجل الذي صار كلبا عمر فاروق محمد علي جريدة الزمان الدولية العدد ٤٢١٥ التاريخ ٢٠١٢/٦/٢

الإقتباسات

- (١) ينظر أصل التفاوت بين الناس :٦٣ جان جاك روسو ترجمة عادل زعيتر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة ٢٠١٣ ط١
- (٢) الموجز في الاهانة : ٢١ برنار نويل ترجمة محمد بنيس دار توبقال للنشر المغرب ٢٠١٧ ط١
- (٣) اللامعقول في حكاية الرجل الذي صار كلبا عمر فاروق محمد علي جريدة الزمان الدولية العدد ٤٢١٥ التاريخ ٢٠١٢/٦/٢
- (٤) الكينونة والشاشة- كيف يغير الرقمي الإدراك : ٣٩، ستيفان فيال ترجمة ادريس كثير هيئة البحرين للثقافة والآثار ٢٠١٨ ط١
- (٥) ثقافة تويتير حرية التعبير أو مسؤولية التعبير : ٧ عبدالله الغدامي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠١٦ ط١
- (٦) غزو الأغبياء ميرزا الخويلدي جريدة الشرق الأوسط في الأربعاء - ١١ شعبان ١٤٣٧ هـ - ١٨ مايو ٢٠١٦ م
- (٧) الإنسان المهودر- دراسة تحليلية نفسية اجتماعية :١٣٠- د.مصطفى حجازي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٥ ط١
- (٨) تعليم المقهورين :٤١-٤٢، باولو فرايري ترجمة الدكتور يوسف نور عوض، دار القلم بيروت ١٩٨٠ ط١
- (٩) سلطة الاستبداد والمجتمع المقهور : ٦٨ صاحب الربيعي دار صفحات للدراسات والنشر دمشق ٢٠٠٧ ط١
- (١٠) الإنسان العاري-الدكتاتورية الخفية للرقمية مارك دوغان كريستوف لابي ترجمة سعيد بنكراد المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء المغرب ٢٠١٩ ط١
- (١١) الموجز في الاهانة : ٦
- (١٢) جينالوجيا الدين-الضبط وأسباب القوة في المسيحية والإسلام : ٦٩ طلال أسد ترجمة محمد عصفور دار المدار الإسلامي بيروت ٢٠١٧ ط١
- (١٣) تأويل الثقافات :٢٩٧، كيلفورد غيرتز ترجمة د. محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة بيروت ٢٠٠٩ ط١
- (١٤) سيكولوجية التعصب "٩ اندريه هاينال -ميكولوسمولنار-جيرار دي بوميح ترجمة خليل احمد خليل دار الساقى بيرت ١٩٩٠ ط١
- (١٥) يمكن متابعة كيفية نظر اليهود للاغيار(الغوييم او الجوييم) في كتابة همجية التعاليم اليهودية :٥٤-٨٨، بولس حنا مسعد، المكتب الاسلامي بيروت ١٩٨٣ ط٢ وكتاب جنابات بني اسرائيل على الدين والمجتمع :٢٤٢-٢٤٤، محمد ندا دار اللواء الرياض السعودية ١٩٨٤ ط١
- (١٦) لسان العرب مادة جوا
- (١٧) الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود : ٨٩ اسرائيل شاحاك ترجمة حسن خضر دار سينا للنشر القاهرة ١٩٩٤ ط١
- (١٨) الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود ١٤١-١٤٢
- (١٩) ينظر التلمود :٢٧٩ المشنا القسم الرابع نزيقين الأضرار ترجمة د. مصطفى عبدالمعبود مكتبة الناظفة القاهرة ٢٠٠٧ ط١
- (٢١) ينظر التلمود : ٢٨٣
- (٢٢) تليفق صورة الآخر في التلمود : ٨٨، زياد مني، شركة قدمس للنشر والتوزيع بيروت ٢٠٠٤ ط٣
- (٢٣) تليفق صورة الآخر في التلمود : ٨٩-٩٠
- (٢٤) الإنسان المهودر دراسة تحليلية نفسية اجتماعية : ١٤٥
- (٢٥) ينظر جريدة الدستور الأردنية عدد يوم الأربعاء ١٠/سبتمبر/٢٠١٤ - ٠٦:٥٧ م مقال داعش صنع في أميركا لمحمود نبيل <https://www.dostor.org/675011> ،
- (٢٦) الاهانة في عهد امبريالية : ١٢

- (٢٧) الموجز في الإهانة : ١٥
- (٢٨) نظام التفاهة : ٨٥ ألان دونو ترجمة مشاعل عبدالعزيز الهاجري دار سؤال للنشر بيروت ٢٠٢٠ ط١
- (٢٩) الإهانة في عهد الميغا امبريالية : ٧ المهدي المنجرة المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٧ ط٥
- (٣٠) توم وجيري انتصار للظلم خلف قناع ضاحك رافع البرغوثي جريدة القيس الكويتية عدد رقم ١٦٨١١ السنة ٤٩ يوم الثلاثاء ٩ يونيو ٢٠٢٠،
- (٣١) الموجز في الإهانة : ٣٨
- (٣٢) الموجز في الإهانة : ١٦
- (٣٣) خطاب في التفاهة : ١٥ وثام سهلا - محمد مختاري ، الناظر للطباعة المغرب ٢٠٢٠ ط١
- (٣٤) الموجز في الإهانة : ٢٧
- (٣٥) الموجز في الإهانة : ٣٢
- (٣٦) زمن المنوليين - باثولوجيا العلاقات الدولية : ١٩
- (٣٧) الموجز في الإهانة : ٢٤
- (٣٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيح : 538-537، 1) محمد ناصر الدين الالباني مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض ١٩٩٥ ط١
- (٣٩) صحيح البخاري الحديث رقم ٢٧٣١
- (٤٠) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر مظفر النواب : ٤٧٩ دار قنبر لندن ١٩٩٦ ط١
- (٤١) زمن المنوليين - باثولوجيا العلاقات الدولية: ١٨ برتران بديع ترجمة جان ماجد جبور ، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات بيروت ٢٠١٥ ط١
- (٤٢) موسوعة المصطلح النقدي- اللامعقول ، الهجاء التصور والخيال، الوزن والقافية والشعر الحر، المجلد الثاني : ٢٩٨ ترجمة عبدالواحد لؤلؤة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٢ ط١
- (٤٣) النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية العربية : ١١٨ عبدالله الغدامي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ٢٠٠٥ ط٣
- (٤٤) النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية العربية : ٩٦
- (٤٥) ديوان الأخطل : ١٦٦ ، تحقيق محمد مهدي ناصر الدين دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤ ط٢
- (٤٦) النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية العربية : ١٤٥
- (٤٧) ديوان المتنبي شرح عبد الرحمن البرقوقي : ١٨٧-١٨٨ مؤسسة هنداوي للتقافة والتعليم القاهرة ٢٠١٢ ط١
- (٤٩) ديوان ابن الرومي : الجزء ٣ صفحة ٤٦٣ تحقيق احمد حسن بسج منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٢ ط٣